# من عيوب الشروح ونواقصها[1]

- **الأول : النقل بلا تحرير :**

والمقصود به : الاعتماد على مجرد النقل ، دون استثمار صحيح للمنقول : في تحرير أو تحليل أو مناقشة أو استدراك .

وهو شر العيوب ، وأكثرها حضورًا في شروح المتأخرين . وهو أَدْوَىٰ أدواء كتب التراث عمومًا والمتأخر بالأخص ، وأشدُّها علاقةً بالعبارة الحكيمة : «العلم قطرة ، كثّرها الجاهلون». وما أكثر كتب الشروح التي استولى عليها هذا العيب ، رغم مكاييل الثناء التي قد تسمعها أو تقرؤها ، ورغم توفر الدعم لبعضها بفاخر الطباعة أو النشر المجاني ، مما يعطيها – غالبًا – شُهرةً بين الناس ، يسمونها – بقِلّةِ وَعْيٍ – : قبولا ، وهي قبول الزور وشهرة الإفلاس ؛ لأنها حُظوةٌ لا تستحقّها ؛ إلا بما يستحقه الممدوحُ بضدّ ما فيه ، والقليلُ الحقيرُ الذي ما كَثَّرَهُ وأَعَزَّه غيرُ درهمٍ كساه وأطعمه ، فكان هو الأولى بيت الحطيئة :

| | | |
|---|---|---|
| دعِ المكـــارمَ لا ترحـــلْ لبُغيتهـــا | | واقعدْ فإنك أنت الطاعمُ الكاسي |

ولن ينجو الشرح من أن يُعاب بهذا العيب لمجرد وجود إضافةٍ ما في شرحه ، مفرَّقةً هنا وهناك ، إذا ما كانت :

- إضافة لا تضيف ما يخدم الكتاب المشروح :

  - كالإعراب الذي يستعرض فيه المعرِبُ قدرته على الإعراب دون أن يُظهر علاقته المهمة بالشرح وتحريره لخلافٍ في فهم النص المشروح .

---

(١) مبحث من مباحث مقرر شرح الحديث (تعريفه وتاريخه ومناهجه وأنواعه وخطواته وأهم المؤلفات فيه ونماذج تطبيقية منه).

- وكالاستطراد الذي لا يخدم النص المشروح ، وإنما يكون من باب شجون الحديث ، بالخروج من موضوع إلى موضوع ، ومن قصة إلى شعر إلى إعراب..!!

- أو كانت إضافة قليلة في جنب بحرٍ من التكرار المملّ والنقل الطويل ، فاستخراج تلك الإضافة في هذه الحالة ضربٌ من العذاب وتضييع الأوقات وحرمان الفائدة . وإلا فلا يكاد يخلو كتابٌ من إضافةٍ ما ، يتذرع بها المدافعون عن ذلك الكتاب : بأن فيه إضافة! لكن : ما حجمها ؟ ما طعمها ؟ ما لونها ؟ ما ريحها ؟ لا يهم عندهم ، المهم أن يزعموا وجود إضافة !! ألا يعلم هؤلاء أن الحكمة قد تُستخرج من أفواه المجانين؟! فهل أصبح المجانينُ مصدرًا للحكمة بذلك الشاذِّ النادر ؟! نعم .. لا يُقصد بهذا المثل تشبيه شرحٍ من الشروح بكلام المجانين ، حاشا .. وكلا ، ولكنه مثالٌ لبيان عدم محو معرة الاعتماد على مجرد النقل بوجود الإضافة الضائعة في ركامه ، ولن تكون تلك الإضافةُ التي لا تُذكر مذكورةً عند تقويمنا لذلك الكتاب!!

فإن أُضيف إلى هذه الجلادة في النقل المجرّد ، أن يكون نقلا بلا عزو ، وإغارةً وسطوًا على جهود من سبق = فقد أضاف إلى عيب النقل المجرّد وصمةَ سوءٍ لا تغسلها إلا التوبة والبراءة من التزوير ! وعندئذ يكون العيبُ قد تَحوَّرَ عَيبةً من النواقص المنفِّرة وعِبئًا ثقيلا من الخطايا القادحة في الإخلاص وحُسْن القصد ، والدالة على أنك قد تَلفّعتَ بثوبَـيْ زُورٍ وتَشَبَّعْتَ بما لم تُعطَ ! فالله يرحمك ويرحم شرحك ! مات وقُبر قبل موتك وقبرك ، (مات) : فلا فيه صدقةٌ تجري بعدك ، و(قُبر) : في قبرك ليكون صفحةً سوداء في صحيفة أعمالك .

- **الثاني : نَقْلُ علومٍ أجنبية عن النص المشروح في الشرح :**

وبعد التأكيد على قوة علاقة العلوم الإسلامية ببعضها : نقلية وعقلية ، شرعية ولغوية ، إلا أن ذلك لا يعني أن أجعل كتابا في علمٍ منها مجالًا لتحرير مسائل علم آخر ، على وجه الإيغال في ذلك ، ودون أن يكون لذلك التحرير فائدة – على قدر التطويل في التحرير – في شرح النص المشروح .

وقد ألمح إلى طرفٍ من ذلك العلامة المتأخر عبد الرؤوف الـمُناوي الشافعي (ت١٠٣١هـ)، عندما قال في شرحه للأربعين النووية : « وقد أورد الشارح الهيثمي هنا فروعًا كثيرة على مذهب الشافعية، والفاكهي فروعا كثيرة على مذهب المالكية ، وذلك غير جيد ، واللائق بالكتب الحديثية : إنما هو ذِكْرُ مأخذ كلٍّ من الأئمة المجتهدين على وجه الاختصار، وأما محل بسطه : فكتب الفروع»[(١)].

ولا يعني أن هذا الصنف من الشروح ليس مفيدًا ، بل هو مفيد ، خاصة إذا اتّسمَ بالعمق والدقّة ؛ لكنه لن يكون معدودا ضمن الشروح المتميزة لذلك الكتاب ، وإنما سيُعَدُّ كتابًا متميزا في ذلك العلم الأجنبي الذي أدخله ذلك الشارحُ في شرحه لذلك النص المشروح .

وحصول ذلك قليلا في الشرح لا يعيب الشرح ، وإنما يُعاب الإكثار منه ؛ لأن الشارح قد تمر به مسألة متعلقة بمسألة في علم آخر ، ولديه فيها تحريرٌ جيد لا يجده في كتابٍ آخر يمكن أن يحيل إليه ، ولا للشارح نية في تأليف كتاب في ذلك العلم ، فهو إن لم يدوِّن ذلك التحرير هنا : ضاع، فلا يجد لذلك بُدًّا من تدوينه .

(١) شرح الأربعين النووي للمناوي – نسخة برلين رقم ٤٦١ – (١٨٢/ أ)، ورسالة الماجستير التي حققت قطعة من الشرح للباحث محمد عبد الكريم الإسحاقي – الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة . كلية الحديث الشريف . قسم فقه السنة ومصادرها . سنة : ١٤٣٦هـ و ١٤٣٧هـ– (١٦٦).

- **الثالث : حضورُ المعارك في فروع العقائد والمذاهب في غير محلها من كتب الشروح:**

فبالله عليكم : هل جاء القرآن الكريم لينتصر لمالكي على شافعي ، أو لشافعي على حنفي، أو لحنبلي على غيره ؟! لكي يكون تفسيرٌ للقرآن الكريم ساحةً لتلك الاختلافات في فروع الفقه!

وبالله عليكم : هل كان النبي ﷺ يضيئ قلوبنا بسنته وسيرته من أجل أن تُجعل فتنةَ تفريقِنا بفروع الخلاف العقدي بين حنبلي وأشعري ، أو حتى بين أشعري ومعتزلي في فروع العقيدة.

ولا يعني ذلك أن لا يُستنبط من القرآن والسنة هَدْيٌ في الفروع العقدية والعملية (الفقهية)، بل هذا من هدايات الكتاب والسنة بلا أدنى ريب ، فهي الهدايات التي يَتحرَّى فيها المستنبطون لها مواطنَ ظُنونهم من أدلة الوحي فهمًا واستخراجًا للمعاني ، ما داموا في فروع الدين، لا في أصوله ؛ لأن أصول الدين قطعيةُ الأحكامِ يقينيةُ المآخذِ من الكتاب والسنة وأدلة الشرع .

وإنما المقصود بالنقص والعيب هنا : أن تصبح أدلة الوحي منطلقا للتعصب المذهبي ، ولتفريق الأمة على فروعٍ ظنية : فقهيةٍ أو عقدية ، فيقوم الشارحُ بترفه الفكري (الذي هو نزفٌ فكريٌّ يُقطِّع في جسدِ الأمة) والذي يخوض به معاركه الفقهية والعقدية ، فينقله من كتب الجدل (والخصومات) إلى شرحه لكتابٍ من كتب السنة النبوية مثلا ! يا أيها الفارس الفكري : دع رمحك وسيفك ، دع صرخات الطِّعَان ودعوات النِّزال ، واحصرها في ساحات الجدل المتخصصة فقط ، إن كنت مُصِرًّا عليها ! بالله عليك لا تنقلها إلى واحة تفسير القرآن أو إلى روضة شرح السنة، فأنت عندهما في جنّة الوحيين وعلى بساط السماء وبين حفيف أجنحة مَلَكِ الوحي ، فلا ترفع صوتك وألقِ بسمعك ، واغمد سيفك وأَشْهِرْ قلبك ، وانزل عن صهوة القتال لترقى في سماء الجلال ، وهدِّئ من رَوعك ليُنفث في رُوعك من نور الوحي . أنت هنا في

ساحة ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾، وتحت قانون الأُلفة الذي يقول ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾، وفي ظلال : «كونوا عباد الله إخوانا ، المسلم أخو المسلم : لا يظلمه، ولا يخذله، ولا يحقره »، وفي كنف رعاية : «ترى المؤمنين في تراحمهم وتوادهم وتعاطفهم، كمثل الجسد، إذا اشتكى عضوًا : تَدَاعَى له سائرُ جسده بالسهر والحمَّى».

- **الرابع : الاختصار المخلّ :**

كبعض الحواشي والشروح التي تشرح غير المحتاج إلى شرح ، وتتعامى عن المشكلات التي تستوجب الشرح . فيذكر الشارح هنا شرحا لغريب يمكن كل طالب علم أن يستخرجه من (نهاية) ابن الأثير ، وإذا أتى إلى معنى مشكل تصامَّ وتعامى ، فلا يسمع شكوى الحيارى ، ولا يرى وجوم المتألمين من وخز التشكيك !

لقد عرفت بعض الدروس التي هي من هذا القبيل ، ثم نُسخت وطُبعت ، ونُفخت بورم الألقاب للشارح . لا يُعَلِّقُ الشارحُ إلا بحسب قليلٍ ما يظن أنه يُحسن ، مما يلهج بنحوه ويكرره دائما ، ولو كان مما لا يحتاج شرحا . ويصمت عما يفتقر كل الافتقار إلى التعليق ، ولو بالتنبيه إلى إشكاله ، وإلى حاجته إلى جواب ؛ «فإن معرفة الإشكال علمٌ في نفسه ، وفتحٌ من الله تعالى»، كما قال الإمام القرافي (ت٦٨٤هـ)[1]. ثم يغطّ الشارحُ في صمت دائم ، ليستيقظ عند تعليق محفوظ، لينتهي الدرس المبارك بتضييع الأوقات وتسطيح العلوم وشحن النفس بغرور حضور مجالس العلم وثني الركب عند العلماء!

- **الخامس : التطويل المملّ :**

(١) الفروق للقرافي (١/ ٢٨٥).

وضابط التطويل الممل الذي يفرِّقه عن التطويل المفيد الممتع : أن التطويل الممل هو ما يخرج عن مقصود العلم الذي يخدمه النص الأصلي المشروح باستطرادات لا علاقة لها بمقاصده ، فإذا انضاف إلى ذلك : كثرة النقل والقص واللصق : فهو التطويل الثقيل والداء الوبيل ، عفا الله عمن كتبه ، وسامح من طبعه ونشره !

أما إذا كان التطويل في خدمة مقاصد الكتاب ، وكان فيه تحريرٌ وإبداع ، وجودة نقل مع حسن استثمار للمنقول تحليلا ونقدا وبناءً عليه .. فأنعم به من تطويل ، فذاك هو العلم الذي تُضرب له أكباد الإبل ويُبلغ فيه إلى مجمعِ البحرين .

أما غير هذا التطويل (وهو التطويل الممل) : فالاختصار فضيلةٌ في مقابِلِهِ مهما كان .. يكفي الاختصار أنه نجا من ثقل التطويل ودائه الوبيل . فكيف إذا كان اختصارا بليغًا يجمع المعاني الكثيرة في الألفاظ اليسيرة ، بغير إلغاز ، أو كان يقتصر من الكلام على أهمه وعيونه ، فهذا أو ذاك هما الاختصار المحمود ، على تفاوت درجات الحمد .

وقد يُعذر بعض الشُّرّاح قديما في انتهاجهم هذا الأسلوب في الشرح ؛ لأنه قد يكون قصدهم هو الجمع بين عدة شروح في كتاب واحد ، ليُيَسِّرُوا على الطلاب الوقوفَ على كلام أولئك العلماء . لكن بعد تَيسُّرِ الوقوف على الكتب من خلال المطبوعات ، ثم من خلال البرامج الحاسوبية : أصبحت تلك الشروح نُسخًا ممسوخةً عن أصولها ، لا تتجاوز فضيلةَ القصِّ واللصقِ (كما يُقال)، إن كانت تلك فضيلة، وقلّت فائدتها . فالعتب لا يتوجه إليها ، بقدر ما يتوجه إلى :

- من استمرّ على طريقة التأليف هذه ، رغم عدم الحاجة إليها .

- ومن يرجع إلى هذه الكتب ويعزو إليها ، وجُل المهم فيها منسوخٌ بحرفه من مصادر متوفرة بين يدي صغار الطلبة !

لقد انتهى زمن التفاخر بشروح ضخمة من ذلك القبيل التي تعتمد على مجرّد النقل ، وصار الفخر والنفع (وهو الأهم) ينحصر في الشروح التي تتضمن إضافاتٍ في الشكل والمضمون تناسب العصر الحديث :

١-فإما أن يكون قصد الشارح تقريب السنة لعموم المسلمين ، من خلال ترتيب الشرح[1]، وحسن عرضه ، وسهولة أسلوبه ، بما يناسب معارف المعاصرين وأذواق الـمُحْدَثين والمستهدَفين بالشرح.

٢-وإما أن يُضيف الشارحُ استنباطاتٍ وفوائدَ على شروح السابقين ، خاصة فيما يناسب مستجدات الحضارة المعاصرة ومشكلاتها الفكرية والقِيمية والاجتماعية وغيرها .

هذه هي أهم عيوب الشروح : أحببت التنويه بذكرها ؛ ليتنزه عنها من أمَّ هِمَّةَ الشرح وقصد غايتها ، فلينجُ منها ؛ وتكون من معايير هذا البحث التي عليها بُني الاختيار والثناء ، أو الإقصاء وعدم الثناء .




(١) كالكتب الدراسية : التي تبدأ بالتعريف بالصحابي راوي الحديث ، ثم بمعاني الكلمات الغريبة (ضمن جدول)، ثم بين المعنى الإجمالي ، ثم أهم فوائد الحديث .. مرقمةً ، ثم أسئلة تُوجه على الدارسين لتحفيز قدرتهم الفكرية على النقد والاستنباط .